عندما أحبت أوروبا الإسلام

كتبه فورين بوليسي | 7 مايو ,2016

ترجمة وتحرير نون بوست

كتبت ماريا حنون وصوفي سبان

من الخارج، مازالت المآذن العالية والقبة المنتفخة المشيّدة على الغرار المغولي لمسجد فيلمرسدورف، الذي يقع في شارع برينير في جنوب غرب برلين، تبدو تمامًا كما كانت عليه عندما تم بناء الجامع في عشرينيات القرن الماضي، ولكن مؤسسة المسجد الدينية، تغيّرت إلى حد كبير، تمامًا كما تغيرت جميع معالم المدينة من حولها.

يبدو المسجد اليوم مكانًا هادئًا، حيث أصبح أقرب إلى مركز للمعلومات، يذهب إليه أطفال المدارس بزيارات أحيانًا خلال الرحلات الميدانية، ويستضيف حفلات غداء مشتركة ما بين الأديان، كما يؤمه بانتظام مجتمع صغير من المسلمين لأداء صلاة الجمعة، ولكن هذا الواقع الحالي بعيد كل البعد عن تلك الأيام التي كان فيها مسجد فيلمرسدورف مركزًا فاعلًا لحركة الثقافة الروحية المضادة في جمهورية فايمار.

جذب المبشرون من الطائفة الأحمدية من منطقة البنجاب الهندية البريطانية الذين بنوا المسجد في العشرنيات، حشدًا متنوعًا إليه من برلين، حيث استضافوا المحاضرات التي طرحت أجوبة للأسئلة الفلسفية العميقة التي كانت معضلة وقتها، وشملت المواضيع التي تناولوها الفجوة المتوسعة بين الحياة والعقيدة، مستقبل أوروبا، ومستقبل البشرية جمعاء.

حضر الألمان من جميع الأعمار، والذين كانوا يصارعون ذواتهم في خضم خيبة أملهم العميقة من الحضارة المسيحية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، دروس المسجد، حيث كانوا يسعون للحصول على بديل ديني حديث وعقلاني وروحاني بذات الوقت، والكثير منهم تحولوا في نهاية المطاف إلى الدين الإسلامي.

يبدو هذا المشهد غريبًا إذا تخيلناه في ألمانيا اليوم، حيث يدعو حزب البديل من أجل ألمانيا اليميني لفرض حظر على النقاب والمآذن، ويشير أكثر من نصف الألمان إلى أنهم يعتبرون الإسلام تهديدًا، ولكن في فترة ما بين الحربين، تفاخرت برلين بطبقة مثقفيها المسلمين المزدهرة والتي لا تضم المهاجرين والطلاب من جنوب آسيا والشرق الأوسط فحسب، وإنما طبقة الألمان المهتدين إلى الإسلام من كافة مناحي الحياة.

في ذلك الوقت، كان الإسلام يمثّل شكلًا من أشكال الثقافة الروحانية المضادة، بل حتى الدخيلة، لليساريين التقدميين، والألمان لم يكونوا استثناء من هذا النوع من الانفتاح وحتى الانبهار بالإسلام، حيث شهد أوائل القرن العشرين ظهور المجتمعات والمؤسسات الإسلامية الأولى في أوروبا الغربية، ومعها تحول أعضاء المجتمعات في بريطانيا وهولندا إلى الإسلام، إنها فترة منسية من التاريخ تقريبًا، ولكنها تبدو ذات أهمية خاصة اليوم، حيث تتسم العلاقة ما بين الإسلام وأوروبا بشكل متزايد بالقلق وأحيانًا بالعداء الصريح.

> في خضم سعيهم للحصول على بديل ديني حديث وعقلاني وروحاني، اهتدى الألمان إلى الإسلام بعد صراع ذواتهم جرّاء خيبة أملهم العميقة من الحضارة المسيحية في أعقاب الحرب العالمية الأولى

لا تزال مناقشات اليوم حول الإسلام في أوروبا، حتى الدقيقة منها التي تأخذ بعين الاعتبار العوامل الهيكلية التي تهمّش السكان المسلمين في القارة، تعالج الإسلام إلى حد كبير باعتباره ظاهرة جديدة، شائكة، ودخيلة على الحياة الثقافية والسياسية في أوروبا كما نعرفها، ولكن نظرة واحدة إلى الوراء في أوائل القرن العشرين، وتحديدًا إلى فترة ما بعد وصول الموجة الأولى من هجرات المسلمين إلى أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تبين لنا بأن العلاقة بين الإسلام وأوروبا كانت مختلفة للغاية عمّا هي عليه الآن، حيث كانت العلاقة تتسم بفضول المواطنين ومحاباة الحكومات.

ففي الوقت الذي كان فيه مواطنو أوروبا يختبرون الدين الشرقي الغريب على ثقافتهم، كانت الحكومات الأوروبية تقدم معاملة خاصة للمواطنين المسلمين وتخدمهم بطرق قد تبدو للوهلة الأولى مستغربة؛ فالحكومة الفرنسية العلمانية أنفقت ببذخ على بناء المساجد، في حين سعت ألمانيا لإثبات تفوّق حسن معاملتها للمسلمين بالمقارنة مع فرنسا وبريطانيا.

لا يعد هذا الماضي بمثابة تذكير بأن التقاء أوروبا مع المسلمين ليس حديثًا فحسب، بل يؤكد أيضًا على أن العلاقة بين غرب أوروبا والإسلام لم تكن دائمًا كما هي عليه اليوم، وقد لا تستمر دائمًا على

وضعها الحالي في المستقبل.

يوضح أحد المهتدين إلى الإسلام، هوغو ماركوس، وهو فيلسوف يهودي مثلي الجنس، بأن الإسلام لم يكن موجودًا في أوروبا في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى فحسب، بل بالنسبة للبعض، لعب الإسلام دورًا حيويًا في المناقشات حول ما يجب أن يبدو عليه مستقبل القارة.

ساعد ماركوس، الذي ولد في عام 1880، في إدارة مسجد فيلمرسدورف، بعد أن انتقل إلى برلين لدراسة الفلسفة، حيث تحوّل إلى الإسلام عام 1925، بعد حضوره لدروس المهاجرين المسلمين الشباب من جنوبي آسيا، وحينها قام بتغيير اسمه إلى حميد.

كتب ماركوس مقالات للنشر في المسجد، عالج ضمنها أهم المواضيع التي تناولها أشهر فلاسفة ذاك العصر، كغوته ونيتشه وسبينوزا وكانط، موضحًا أن الإسلام كان عنصرًا ضروريًا في صياغة "الإنسان الحديث"، وهو اسم يستخدم لوصف المواطن المثالي المستقبلي، حيث كان "الإنسان الحديث" مفهومًا فلسفيًا رائجًا حينها تم تناوله من قِبل الجميع ابتداءًا من الاشتراكيين وحتى الفاشيين، وكان مفهومًا مركزيًا ضمن كل من التصورات السوفييتية والاشتراكية الوطنية، وبالنسبة لماركوس، كان الإسلام، وباعتباره الخاتمة السماوية لليهودية والمسيحية، العنصر المفقود في قلب "إنسان المستقبل".

> على المستوى الفردي، اهتدى إلى الإسلام في تلك الحقبة عدد من كبار الشخصيات الأوروبية الذين كانوا يبحثون عن فاصل للابتعاد عن تقاليد العالم الحديث

أدارت البعثة الأحمدية مسجدًا آخر في أوروبا الغربية، مسجد شاه جهان في ووكينغ/ انكلترا، حيث كُلِّف ببناء المسجد في عام 1889، المستشرق الأنجلو-هنغاري المتعدد اللغات غوتليب فيلهلم ايتنر، والذي لم يتحوّل إلى الإسلام وفقًا لمعظم الروايات، بل خدم كمترجم في حرب القرم وسافر على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولكن بعد وفاته، ونتيجة لعدم وجود من يشرف عليه، سقط مسجد شاه جهان بعد مرور 10 أعوام في غياهب النسيان.

بعد الحرب العالمية الأولى، اشترى المحامي الهندي المولد وأحد أعضاء البعثة الأحمدية، خواجة كمال الدين، المسجد، وقام بإعادة إحيائه، وحوّله إلى بعثة وكينغ؛ حيث استطاع المسجد الذي يقع على بعد 30 ميلًا إلى الجنوب من لندن، استقطاب المهتدين إلى الإسلام من الطبقة العليا والوسطى في بريطانيا الذي تشاطروا جميعًا عدم الرضى عن المسيحية والمجتمع الغربي الحديث، وكان أحد أكثر المهتدين شهرة في ذاك الوقت لورد هيدلي الإيرلندية.

اهتدى بارون هيدلي الخامس، الذي ولد باسم رولاند جورج ألانسون وين، إلى الإسلام في عام 1913، وغيّر اسمه ليصبح الشيخ رحمة الله الفاروق، وحينها أصبح اللورد هيدلي أشهر المهتدين البريطانيين إلى الإسلام، ففي عشرينيات القرن المنصرم، ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج بتغطية

إعلامية كبيرة، وكتب خلال حياته عددًا من الكتب والمقالات حول الإسلام، التي أوضح ضمنها ثقته بالمستقبل المجيد الذي سيتمتع به الإسلام في بريطانيا.

> تاريخ المسلمين والإسلام في أوروبا الغربية هو أقدم وأكثر تشابكًا مما يعتقده الكثيرون

على المستوى الفردي، اهتدى إلى الإسلام في تلك الحقبة عدد من كبار الشخصيات الأوروبية الذين كانوا يبحثون عن فاصل للابتعاد عن تقاليد العالم الحديث حينئذ، ومنهم طبيب الأمراض الجلدية الهولندي، بيتر هنريكوس فان دير هوج، الذي أسس لشركة مستحضرات تجميل لا تزال تقدم خدماتها لنساء هولندا، والذي اهتدى إلى الإسلام خلال هذه الفترة، وذهب لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة، كما اهتدى هاري سانت جون فيلبي، ضابط المخابرات البريطانية ووالد كيم فيلبي، العميلة المزدوجة سيئة السمعة، إلى الإسلام خلال فترة معيشته في المملكة العربية السعودية في عام 1930، وغيّر اسمه إلى عبد الله، فضلًا عن الكاتب اليهودي ليوبولد فايس، الذي غيّر اسمه إلى محمد أسد، ويعد نجله، طلال أسد، أحد علماء الأنثروبولوجيا الأكثر تأثيرًا في عالمنا اليوم.

فضلًا عن ذلك، أظهرت الحكومات الأوروبية الغربية في أوائل القرن العشرين تسامحًا، وتحيزًا أحيانًا، لصالح الإسلام، قد يدهش القرّاء المعاصرين، رغم أن دوافعها كانت في كثير من الأحيان أكثر دهاءًا من دوافع اهتداء مواطنيها للإسلام؛ فخلال الحرب العالمية الأولى، اعتمدت فرنسا وبريطانيا على رعاياها في البلاد المستعمرة، الذين كان أغلبهم من المسلمين، للخدمة في ميادين القتال الأوروبية، وأظهرتا قدرًا كبيرًا من الاهتمام لتلبية احتياجات هذه القوات، حيث كان الأئمة مرتبطين بأفواج القتال، وحصل المسلمون ضمن تلك الجيوش على أطعمة حلال خاصة بهم، فبدلاً من لحم الخنزير والخمر، تم منحهم وجبات الكسكس ومشاريب القهوة والشاي بالنعناع، علمًا بأن أفواج اليهود التي كانت تخدم ضمن تلك الجيوش لم تحصل على مثل هذه المعاملة الخاصة، كما وبنت الحكومة الألمانية أول مسجد في البلاد في معسكر لأسرى الحرب في فونسدورف لاستيعاب الجنود المسلمين الأسرى بغية إظهار أن الألمان يعاملون المسلمين بطريقة أفضل من الفرنسيين أو البريطانيين، حيث كان الألمان يأملون أن يفضي ذلك إلى خلق اضطرابات بين السكان في مستعمرات بريطانيا وفرنسا التي تعج بالمسلمين.

في فترة ما بعد الحرب، أدى تركيز الحركات المناهضة للاستعمار المتزايد على الهوية الإسلامية إلى إثارة قلق الحكومات الأوروبية، حيث نشرت جنود مخابراتها في المقاهي الأوروبية التي كان يجتمع ضمنها المفكرون المسلمون، بما في ذلك شكيب أرسلان، أحد أشهر الإسلاميين في أوروبا ما بين الحربين العالميتين وهو جد السياسي اللبناني المعاصر وليد جنبلاط، حيث عمل أرسلان حينئذ على الترويج ما بين كافة المسلمين لرسالة المقاومة.

بالمقابل، عملت الحكومات الأوروبية على استمالة المسلمين من خلال قوة الإعلام الناعمة؛ ففي عام 1926، وبعد أكثر من عقدين من الزمن على تأكيد التزامها بالعلمانية في قانون عام 1905،

اعتمدت الدولة الفرنسية على مجموعة متنوعة من الثغرات لتمويل بناء مسجد باريس الكبير، مما أثار غضب الكاثوليك في البلاد جرّاء المعاملة التفضيلية للدولة تجاه المسلمين.

ظاهريًا، تم بناء المسجد ليكون بمثابة عربون تحية للجنود المسلمين الذين قاتلوا لصالح فرنسا خلال الحرب؛ فعندما تم وضع حجر الأساس للمسجد في عام 1922، أعلن مسؤول بلدية باريس، بول فلوروت، بفخر بأنه عندما وجدت فرنسا نفسها في خطر في عام 1914، "لم يتردد المسلمون في تلبية نداء الوطن، وقدم العديد منهم حياتهم دفاعًا عن الحضارة"، وأضاف بأن المسجد كان عربون امتنان من فرنسا، ونصبًا تذكاريًا للجنود المسلمين الذين سقطوا خلال الدفاع عن البلاد.

في الواقع، يرى المؤرخون هذا المسجد اليوم كدليل على الدعاية الاستعمارية التي تهدف إلى إعطاء الزوار لمحة عن القوة الإمبراطورية الفرنسية في العالم الإسلامي، كون العمال الشمال أفريقيين في باريس يعيشون غالبًا في أماكن بعيدة للغاية عن المسجد، وأوقات الصلاة لا تتوافق مع جدول عملهم ضمن المصانع، كما أن الأسعار الباهظة للمطاعم في منطقة المسجد جعل ارتيادها أمرًا بالغ الصعوبة للجميع ما عدا حفنة من النخب الفرنسية والمغربية؛ والمسجد، الذي بني في الدائرة الخامسة، على الجانب الآخر من جادرين دو بلانتس، لا يزال قائمًا اليوم، ويؤمه السياح من جميع أنحاء العالم للتمتع بكوب من الشاي بالنعناع والبقلاوة في المقهى المجاور أو لشراء سجادة مغربية في محل بيع الهدايا بالقرب منه، ولاستنشاق بعض هواء الجو الشرقي في قلب باريس.

في عام 1935، خصت الدولة الفرنسية العلمانية مرة أخرى المسلمين بمرفق آخر، حيث شيّدت مستشفى في بوبيني، وهي مقاطعة صغيرة في شمال شرق باريس، مخصص حصرًا للمسلمين، وكان من المفترض أن يكون هذا المستشفى مثالًا على الالتزام بقيم الجمهورية بالمساواة من خلال توفير رعاية خاصة للمسلمين، حيث يقدم طعامًا حلالًا للمرضى، كما تم تصميمه من قِبل المهندسين المعماريين الفرنسيين بأسلوب العمارة "الشمال أفريقي"، فضلًا عن تزويده بقاعة صلاة ومقبرة إسلامية.

> لم يكن تودد الأوروبيون وحكوماتهم للإسلام والمسلمين علامة على قبولهم في المجتمع، بل كان بأغلبيته نهجًا مدفوعًا بالتهديد المُتصور للمصالح الوطنية نابعًا من إمكانية التخريب السياسي التي يستبطنها الدين الإسلامي

ولكن في الوقت عينه، ساعد وجود هذا المشفى على إبقاء المسلمين بعيدًا عن عنابر المرضى العامة الباريسية، وتزامن ذلك مع إعراب المواطنين الفرنسيين عن مخاوفهم من احتمالية حمل العديد من العمال من شمال أفريقيا لأمراض تناسلية خطيرة، مما جعل هذا المشفى علامة على عنصرية الأوروبيين في كثير من الأحيان، كما قدم المستشفى مثالًا جيدًا على الإستراتيجية النموذجية التي انتهجتها الحكومة الاستعمارية في تلك الفترة، والتي تتمثل بتقديم الخدمات للسكان المسلمين بهدف استمالتهم وإبقائهم تحت سيطرة الدولة على حد سواء.

بعيد الحرب العالمية الثانية، وخلال الحرب ذاتها، تحوّلت جهود الدول الأوروبية للظفر بقبول المسلمين لتصبح ذات أهمية عظمى؛ فخلال هذه الفترة، ساعدت بريطانيا على تمويل بناء مسجدين في لندن، في حين حاول النازيون إقناع المسلمين، وخاصة في أوروبا الشرقية، للانضمام إلى حربهم ضد السوفييت، ولا سيّما في البلقان، شبه جزيرة القرم، والقوقاز، حيث قدم النازيون أنفسهم على أنهم حماة للإسلام، وركزت الدعاية التي تم بثها من خلال الإذاعات والنشرات الإعلامية على معادة البلشفية، معاداة اليهودية، ومعاداة الإمبريالية البريطانية، وأسفرت تلك الجهود عن تأسيس كتائب للمسلمين ضمن الجيش الألماني، ولكن العديد من هؤلاء الجنود انخرطوا بالحرب لاعتبارات اقتصادية لا تنبع من أي قيم أيديولوجية.

تكمن المفارقة هنا، بأن هذه الفترة التي شهدت تودد الأوروبيين وحكوماتهم للإسلام والمسلمين، كانت تُنبئ بما سيضحي عليه حال معاملة الإسلام في أوروبا الغربية اليوم؛ فالاهتمام الخاص المولى للمسلمين، لم يكن علامة على قبولهم في المجتمع، بل كان بأغلبيته نهجًا مدفوعًا بالتهديد المُتصور للمصالح الوطنية والنابعة من إمكانية التخريب السياسي التي يستبطنها الدين الإسلامي، وهذا الدافع لا يختلف كثيرًا عن الفكر الذي يقف خلف تنظيم برامج ترعاها الدولة لتدريب الأئمة المسلمين، التي ظهرت في بريطانيا وهولندا في السنوات الأخيرة.

مع مرور الوقت، تركت المعركة ندباتها على مسجد فيلمرسدورف ببرلين؛ ففي المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، تم تحويل المسجد لساحة معركة، فأثناء الغزو الروسي لبرلين، حفرت القوات النازية الخنادق في حدائق المسجد الهادئة، وأطلق الجنود الألمان النار على جنود العدو من مآذنه العالية، وفي خضم القتال، تدمرت مآذن الجامع وأصيب هيكله بأضرار جسيمة، وعلى الرغم من إعادة الإعمار التي خضع لها، إلا أنه لم يعد إلى مجده السابق، واليوم يقتصر حضور المسجد في معظمها على أداء صلاة الجمعة، ولم يعد تاريخه العريق معروفًا إلا لعدد قليل من الأشخاص.

في العقود الحافلة بالأحداث في أعقاب الحرب، تلاشت الفترة القصيرة التي شهدت اعتناق بعض الأوروبيين للإسلام إلى غياهب النسيان، ربما لأن التدفق الأخير والكبير للعمال المسلمين في ستينيات وسبعينيات القرن السابق جعل المسلمين أقلية واضحة على نحو متزايد في هذه البلدان، بدلًا من كونها نسبة ضئيلة من السكان، مما أسفر عن إثارة واطراد التوترات، أو ربما لأن الأحداث التي ميّزت العلاقة ما بين المجتمع الغربي والشرق الأوسط منذ حوادث سبتمبر طغت على تاريخ علاقة الغرب مع المسلمين.

ولكن مع ذلك، فإن استطلاعنا للتاريخ هو أمر مهم لفهم الجيد والسيئ والقبيح فيما يتعلق بالتاريخ الغني والمعقد للإسلام في أوروبا الغربية؛ فإذا كانت الحكومات الغربية، وفي خضم حماستها لاستمالة السكان المسلمين، قد خصتهم بميزات معينة، إلا أنها ساعدت، بطريقة أو بأخرى، على إرساء أسس مفهوم "الاختلاف" الذي تشعر به أوروبا تجاه الإسلام اليوم، وهنا يقدم لنا مسجد فيلمرسدورف رؤية بديلة تدلل على الزمن الذي لم يقترن فيه الإسلام في أذهان الأوروبيين بالقمع ومعاداة الفكر والتهديد؛ فتخيلنا للمحاضرات التي أُلقيت غير مرة في ووكينغ وفيلمرسدورف وجمهورها المتنوع، يتيح لنا أن نتصور وجود علاقة بين أوروبا والإسلام تتسم بالحوارية والسلاسة.

تاريخ المسلمين والإسلام في أوروبا الغربية هو أقدم وأكثر تشابكًا مما يعتقده الكثيرون، والاعتراف بذلك يساعدنا على تصور مستقبل يُنظر ضمنه إلى المسلمين باعتبارهم جزءًا متساويًا ولا يتجزأ من الحياة العامة الأوروبية، بدلًا من اعتبارهم غرباء أو تهديدات مستمرة على القيم والحياة الأوروبية.

المصدر: فورين بوليسي

رابط المقال : https://www.noonpost.com/11643/